موقف الإمام محمد عبده النقدي
من بعض ممارسات المتصوفة في عصره

عادل سالم عطية جاد الله[*]

ملخص

تقدم هذه الورقة البحثية قراءة لرؤية الإمام الشيخ محمد عبده حول التصوف، وموقفه من أدعياء الصوفية الذين يميلون إلى القيام بتصرفات وممارسات لا تمت للإسلام بصلة، فيقومون بتعظيم قبور الأولياء والمشايخ، ويتوسلون بهم في كلّ عشية وضحاها، ويبتكرون صنوفاً من البدع والمفاسد التي كانت سبباً في تأخر المسلمين وضعف شوكتهم، مثل: التفرقة بين الحقيقة والشريعة، وإقامة الموالد، وزيارة الأضرحة؛ تبركاً وتوسلاً وتعظيماً، واستعمال مصطلحات غامضة كانت لها آثار سلبية على عقيدة المسلمين.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الموالد، الحقيقة والشريعة، الكرامات، الولاية، التوسل بالأولياء.

The critique of Imam Mohammed ‘Abduh regarding some of the Sufi practices of his time

Abstract

This paper presents a reading of Imam Muhammad Abduh's view about Sufism, and his position on the Sufis who engage in practices not rooted in Islamic sources. Such practices include veneration of tombs of saints and sheikhs, seeking their intercession every morning and evening, and inventing other varieties of heresies and corruptions that have been reasons for Muslim backwardness and weakness. For example, they distinguish between truth and law, perform *mawlids*, and visit shrines for worship, intercession, and blessing. They also use ambiguous terms that have had a negative impact on the doctrine of Muslims.

Key words: Sufism, *Mawlids*, Truth and law, Supernatural wonders, Sainthood, Intercession by Saints.

[*] دكتوراه في الفلسفة الإسلامية، المدرس بكلية دار العلوم/ جامعة الفيوم/ مصر. البريد الإلكتروني: asa13@fayoum.edu.eg

تم تسلم البحث بتاريخ ١٥/٦/٢٠١٣م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٤/٤/٢٠١٤م.

مقدمة:

يقدّم هذا البحث قراءة تحليلية من خلال رؤية الأستاذ الإمام محمد عبده لجملة من الأخطاء والأغاليط، التي زلّتْ فيها أقدام بعض الصوفية الذين ظنّوا أنه لا ملجأ ولا مفر إلا بالتقرب للأولياء، وتعظيم قبور مشايخهم ليل نهار، كما أنهم أسرفوا —والله لا يحب المسرفين— في إقامة الموالد وحفلات الذكر، وابتدعوا عادات ظنّاً منهم أنها كرامات مثل: الدوسة، وتقبيل المقامات، وازدحام المساجد في أيام تُعرف بالحضرات، وأردفوا ذلك كلّه بصنوف من الخزعبلات التي لا تشبه أعمال الصالحين والمتقين لا من قريب ولا من بعيد.

والعجيب أنّ معظم هؤلاء الأدعياء يعتقدون أنَّ مثل هذه العادات سُنّة قد طَبقتْ على حبها قلوبُهم، وتمرنتْ على القيام بها أعضاؤهم، فهم بها مستمسكون، وعلى آثار مشايخهم سائرون. لكننا لا نسلّم لهم بمثل هذه الرؤى والتصورات؛ وذلك لعدم وجود دليل ساطع أو برهان قاطع على صحة ما يؤمنون به، فضلاً عن منافاة هذه العادات للشريعة والطَبْع معاً؛ إذ إنّ حججهم "واهية كحجج غيرهم من المبتدعين، يهدرون دم الشريعة طوعاً لأغراضهم، وتنفيذاً لأحكام عاداتهم، ولبئس ما كانوا يصنعون، ويأبى الله إلا أن يُحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لا تغني من الجاه شيئاً."[١]

ونتيجة لهذه المغالطات توهم كثيرون منا "أنّ الصوفية أُبيح لهم أشياء لم تبح لغيرهم؛ لأنهم ترقوا عن رتبة العوام المنهمكين في الشهوات إلى رتبة الملائكة الذين سلبوا الاتصاف بطلبها والميل إليها؛ فاستجازوا لمن ارتسم في طريقتهم إباحة بعض الممنوعات في الشرع، بناء على اختصاصهم عن الجمهور."[٢] ولذا ألفيناهم يفرقون بين الشريعة والحقيقة، ورتبة العوام والخواص، وخواص الخواص.

---

[١] رضا، محمد رشيد. **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، القاهرة: دار الفضيلة، ط٢، ٢٠٠٦م، ج٢، ص١٣٤.

[٢] الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى. **الموافقات في أصول الشريعة**، تخريج: أحمد السيد سيد، شرح: الشيخ عبد الله دراز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م، ج٢، ص٢١٢.

وبناء على ما سبق تظهر أهمية هذا الموضوع فيما يلي:

- يناقش الباحث موقف الإمام محمد عبده من ممارسات بعض المتصوفة المنحرفة، سواء أكانت في الجانب العملي والسلوكي أم في الجانب التنظيري؛ وذلك ليكشفَ النقاب عن بعض المظاهر السلبية والأخطاء الفادحة التي وقع فيها أدعياء الصوفية والسائرون على منهاجهم من المتحذلقة وأولياء الشيطان.

- لا يُنكر أحد نزعة الإمام النقدية في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية كافة، بيد أنني أفردتُ هذا البحث لجانب حيوي في حياة الإمام، عاشه بكلّ ملكاته وطاقاته الروحية، فذاق وعرف معنى اللذائذ القدسية، واللطائف الربانية؛ وذلك منذ ريعان شبابه، ثم خالط الأتقياء والعلماء، فعلم يقيناً أنّ معدنَ التصوف الحقيقي هو تهذيب الأخلاق، وكمال الروح بالآداب والفضائل الجميلة.

- يرصد عدة استنباطات وتحليلات دقيقة لمسالك المتصوفة من خلال منظور الإمام محمد عبده، وأطروحاته الفكرية التي وطّدتْ لتربية جيل كامل من العلماء والمصلحين، فحملوا من بعده لواء الإصلاح والنهضة؛ بغية بناء مجتمع جديد ينافس المجتمعات المتقدمة بكلّ قوة وعزيمة مُضنية.

- على الرغم من نقد الإمام لهذه الممارسات والسلوكات فإنه لم يهدف قط إلى إلغاء التصوف الحقيقي أو هدمه؛ لأنه –كما يرى الإمام– لم يوجد في أمة من الأمم مَنْ يضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتربية النفوس.

وقد بينتُ ملامح هذا الموضوع وأفكاره الرئيسة في النقاط الآتية:

أولاً: نقد العلماء القدماء لممارسات المتصوفة.

ثانيّاً: أثر التصوف على حال المسلمين.

ثالثاً: الإمام محمد عبده صوفيّاً.

رابعاً: مجالات نقد التصوف عند الإمام محمد عبده.

ولعله من الإنصاف -في بداية هذه الورقة البحثية- أن نقرر أن للتصوف الحقيقي إيجابياته المتعددة، وأعلامه الثقات الذين أغنوا الحياة الثقافية والفكرية والروحية بزاد طيب يرتشف منه الواردون، ويتزود منه السالكون الطريق إلى ربِّ العالمين، وإنما قصد الباحث الإشارة إلى ممارسات ومسالك الفرقة المنحرفة عن جادة الصواب، التي أظهر ملامحها الإمام محمد عبده في كتاباته ومؤلفاته.

أولاً: نقد العلماء لممارسات المتصوفة

تهدف الفلسفة -بصفة عامة- إلى إظهار الفاعلية النقدية للموضوعات المطروحة للمعالجة. والنقد -لغة- تمييز الدراهم جيدها من رديئها، وكذلك هو في الفلسفة تمييز للزائف من الصحيح في عالم الفكر.[٣] ولا شك في أنه يختلف عن النقد الأدبي الذي يرتكز على فحص النصوص الأدبية، لبيان محاسنها وعيوبها بوصفها نشاطاً إبداعيّاً ذوقيّاً وجماليّاً.

وكما "يبدو أنَّ الاتجاه إلى نقد التصوف، وتأثره بكلٍّ من الدوافع الموالية والنزعات المعارضة، قد بدأ من قديم، واقترن بعصر التدوين لعلم التصوف والتأليف فيه، بل لعلّه كان من بين الأسباب الباعثة على التدوين والتأليف."[٤] فإذا نظرنا نظرة تأمّلية دقيقة في أقدم المؤلفات الصوفية المتواترة إلينا بالتدوين نلمحُ بوادر النزعة النقدية لملامح التصوف، وقضاياه المختلفة، ومدى صحة المنتسبين إليه في التعبير عن معدن التصوف الحقيقي. وهي نزعةٌ داخلية نابعة من قدماء الصوفية أنفسهم من أجل تبيان وجه الحق، مُكللة بالإنصاف، وروح الموضوعية. وهذا ما يتجلى في قول أبي نصر السراج (توفي٣٧٨هـ) في كتابه (اللمع): "وينبغي للعاقل في عصرنا هذا أن يعرف شيئاً من أصول هذه العصابة وقصودهم، وطريقة أهل الصحة والفضل منهم، حتى يميز بينهم وبين المتشبهين منهم، والمتلبسين بلبسهم، والمتسمين باسمهم، حتى لا يغلط ولا يأثم؛ لأن هذه العصابة أعني

---

[٣] إمام، إمام عبد الفتاح. "النقد عند هيجل"، **مجلة الجمعية الفلسفية المصرية**، القاهرة: مركز الكتاب، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٤٨.

[٤] الشافعي، حسن. **فصول في التصوف**، القاهرة: دار البصائر، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٧٣.

الصوفية، هم أمناء الله ﷻ في أرضه، وخزنة أسراره وعلمه، وصفوته من خلقه، فهم عباده المخلصون، وأولياؤه المتقون، وأحباؤه الصادقون الصالحون."[٥]

فالنقدُ الجيد -إذن- ينبني على قراءة سليمة لأصول المذهب، ومنهج سالكيه، حتى يمكن تمييز أرباب التصوف من أدعيائه. والناس في نقد التصوف وتمحيصه متفاوتون "فمنهم من يغلو في تفضيله ورفعه فوق مرتبته، ومنهم من يخرجه عن حد المعقول والتحصيل، ومنهم من يرى أنّ ذلك ضربٌ من اللهو واللعب، وقلة المبالاة بالجهل...، ومنهم من يُسرف في الطعن وقبح المقال فيهم، حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلالة."[٦]

ولم يتوقف النقد والرفض لممارسات المتصوفة ومسالكهم الخاطئة عند أبي نصر السراج، كما في كتابه "اللمع"، بل ظهر -أيضاً- عند أبي القاسم القشيري (توفي٤٦٥هـ) كما في رسالته "القشيرية"، وهذا النقد يسمى "بالنقد الذاتي أو الداخلي"؛ لأنَّ القائلين به هم من رجالات الصوفية الأكابر وأرباب الطريق الصوفي.

لقد أشار أبو القاسم القشيري إلى الفئة المنحرفة في مسلك التصوف، التي تزعم إسقاط التكاليف، والانحلال من ربقة العبادات، وذلك عندما أخذ على عاتقه مهمة التمييز بين التصوف الحقيقي الصحيح القائم على الكتاب والسُّنة، والتصوف الدخيل الباطل، المنحرف عن جادة الطريق؛ ظاهراً وباطناً، ففضح حال المستهينين بالعبادة المجترئين على الله، الذين تحللوا من تبعات التكاليف بحجة أنهم قد وصلوا وتحرروا، فقال في وصفهم: "وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتّباع الشهوات... وادّعوا أنهم تحرروا من رقّ الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال."[٧]

---

[٥] الطوسي، أبو نصر السراج. **اللمع**، تحقيق: عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، القاهرة-بغداد: دار الكتب الحديثة، مكتبة المثنى، ١٩٦٠م، ص١٨-١٩.

[٦] المرجع السابق، ص٢١.

[٧] القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان. **الرسالة القشيرية**، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، القاهرة: مطابع مؤسسة دار الشعب، ١٩٨٩م، ص١٩.

وكذلك وجدنا صوراً متعددة من نوع آخر من النقد يُطلق عليه (النقد الخارجي) كما برز عند الإمام ابن تيمية (توفي٧٢٨هـ) في حملته المشهورة على الصوفية، ومذهبهم في وحدة الوجود والاتحاد، وبخاصة أنصار مدرسة الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي (توفي٦٣٨هـ) صاحب كتاب الفتوحات المكية، وكذلك في مقارنته الفاصلة بين خصائص أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

ونلمح هذا النقد -أيضاً- عند الشيخ محمد بن عبد الوهاب (توفي١٢٠٦هـ) الذي "هاجم المتصوفة وما ابتدعوه من إقامة الأضرحة، وما سنوه من زيارة القبور، ونذر النذور، وذبح القرابين، وتلاوة الأوراد التي يبكون عند سماعها، ولا يبكون عند سماع القرآن. ذلك أنه كان يعتقد أنه لا نجاة للمسلمين مما حلّ بهم من تدهور إلا إذا تركوا هذه الأوهام والخرافات، وعادوا إلى دينهم في طهارته الأولى"[٨] التي تخلو من خرافات وخزعبلات جاهلية قديمة.

كما نجد هذا المنحى النقدي عند المفكر الإسلامي محمد إقبال؛[٩] إذ قدم "جهده المحمود إزاء التيارات المنحرفة لنظريات الاتحاد والحلول ووحدة الوجود، لا سيّما في ثمرتها الجوهرية في نظرية الإنسان الكامل بما يعيد للمنهج الإسلامي قوته، لا سيّما في عهدنا الحاضر، هذا العهد الذي بدأت فيه صحوة الكلمة الإسلامية تتخذ طريقها الواضح لريادة الفكر العالمي، على أساس من الدين والعلم والإيمان بالمثل العليا."[١٠] بالإضافة إلى إنكاره للرهبنة والعزلة في صوامع، بعيداً عن أعين الناس، ورفضه لما يسمى بشطحات الصوفية وأقوالهم في حالات السُّكر والفناء.[١١]

ونظراً للتفاوت في بيان حقيقة التصوف – لا سيما في العصور المتأخرة– فإنّ الباحث يسعى -في صفحات البحث القادمة- للتعرف إلى وجهة نظر الإمام محمد عبده

---

[٨] قاسم، محمود. **الإسلام بين أمسه وغده**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م، ص٣١.

[٩] إقبال، محمد. **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م، ص٢٠٥.

[١٠] محمود، عبد القادر. **الفلسفة الصوفية في الإسلام: مصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة**، القاهرة: دار الفكر العربي، ط١، ١٩٦٦م، ص٦٠٩.

[١١] صبحي، أحمد محمود. **التصوف إيجابياته وسلبياته**، القاهرة: دار المعارف، د.ت، ص٥-٧.

(توفي ١٩٠٥م) في التصوف، وأصحاب الطرق الصوفية، وذلك في ضوء النزعة النقدية التي انماز بها الإمام، ومحاولته المستمرة في نقد عيوب المجتمع المصري والآفات المتنوعة التي تعوق سير التقدم والنهضة، فلا شك –كما يرى الأمير شكيب أرسلان– في أنّ الإمام محمد عبده هو "أحد أفذاذ الشرق الذين قلما جاد بهم الدهر، وواسطة عقد المصلحين المجددين في هذا العصر."[١٢]

وقد تمتع الإمام بحس نقدي دقيق، وبذهن ثاقب متفتح ساعده كثيراً في محاولاته المستمرة للإصلاح، والتجديد الديني والاجتماعي، وفي أنشطة الحياة المختلفة كافة، وكأنه أدرك أن صلاح أمته ونهوضها لن يكون إلا من خلال كشف عيوبها، ومواطن الضعف فيها، كما أنه كان مؤمناً أشد الإيمان بالنقد بوصفه وسيلة لا غنى عنها في التجديد والتنوير. وتتضح مقومات نزعته النقدية في النقاط الآتية:[١٣]

- تقديره التام للعقل الإنساني، وأهميته، ومكانته، وقدراته في البحث والنظر، والوصول إلى حقائق الأشياء.
- إيمانه بضرورة تحرير الفكر من قيد التقليد، ودرانة الجهل، وفتح باب الاجتهاد.
- النهي عن الجدل الذي يؤدي إلى الفرقة والاختلاف.
- الاعتقاد بحرية الإنسان واستقلال إرادته.
- قوة بأسه وشجاعته في إظهار الحق.

وفي الواقع، إنه على الرغم من إيمان محمد عبده بأهمية التصوف، والتربية الصوفية وأثرها في بناء الفرد والمجتمع، وغرض الصوفية الأوائل الذي يعتدُّ بتربية "المريدين بالعلم والعمل الذي غايته أن يكون الدينُ وجداناً في أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة."[١٤] وبالإضافة إلى اقتناعه التام بجدوى الناحية الروحية

---

[١٢] ستودارد، لوثروب. **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة: عجاج نويهض، تقديم: شكيب أرسلان، بيروت: دار الفكر، ط٣، ١٩٧١م، ج١، ص٢٨٣.

[١٣] عفيفي، زينب. **النزعة النقدية في فكر محمد عبده**، ضمن: **الشيخ محمد عبده مفكراً عربيّاً ورائداً للإصلاح الديني والاجتماعي**، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٥م، ص١٧٣-١٨٣.

[١٤] عمارة، محمد. **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، بيروت-القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٣م، ج٣، ص٥٥٢.

والسلوكية الجيدة في خدمة الإسلام، وإصلاح المجتمعات، فإنه قد سلك طريق المعارضة الصريحة، والنقد اللاذع لأدعياء التصوُّف، وأصحاب الطرق الصوفية في العصور المتأخرة، والعصر الذي ينتمي إليه. ولعله بهذه الروح النقدية يكون ضمن أقرب الفئات إلى الإنصاف، فهو يندرج تحت فئة "برغم تعاطفها مع التصوُّف، وتقديرها لأهله، تتخذ موقفاً نقديّاً، فتعرفُ وتُنكرُ، وتنصح وتقوِّم، وتُسددُ وتُقارِب،"[١٥] ما دام الأمر يخدم حياتنا الدينية والدنيوية.

ومما يُلاحظ أن في أقوال بعض الصوفية وتصرفاتهم إسرافاً شديداً، يخرج بها عن إنسانية الإسلام واعتداله؛ فمنهم من يؤمن بعادة الدّوسة التي فيها امتهان كرامة الآدمي، وتعريضه للمخاطر التي هو في غنى عنها. ومنهم من يدعو إلى الزهد والتقشف، وترك الدنيا وملذاتها الزائلة، من أجل التدرج في المعارج الروحية، بيد أنهم -في الوقت ذاته- "يثبتون نظريات عجيبة تميل بالمسلمين إلى القعود والخمود، واعتزال الدنيا التي لا يرون فيها إلا بؤساً وشراً، وينكرون حرية المخلوق واختياره،"[١٦] فليست لديه القدرة على الفعل والكسب، وإنما هو كالريشة في مهب الريح، ومن ثم بدأ التواكل، وترك الأعمال وشواغل الحياة.

وينضاف إلى الأمور السابقة أنه لم تبق من رسومهم الظاهرة إلا أصوات وحركات يسمونها ذِكراً، وفيه "يتمايل الذاكرون يميناً وشمالاً حول واحد منهم ينشدهم بعض الأشعار الغرامية، أو يضرب لهم على الصنوج النحاسية الساجات، أو ينفخ لهم في صفارة."[١٧] وكذلك تعظيم قبور المشايخ تعظيماً دينيّاً، كما أنهم زعموا أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر...ولعل أثر هذه المفاسد والبدع -التي اخترعها متأخرو الصوفية وأصحاب الطرق- كان سبباً رئيساً من أسباب تأخُّر المسلمين، وضعف شوكتهم في مجالات الحياة المختلفة.

---

[١٥] الشافعي، **فصول في التصوف**، مرجع سابق، ص٢٠٨.

[١٦] أمين، عثمان. **رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده**، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٦م، ص١٨٨.

[١٧] وجدي، محمد فريد. **من معالم الإسلام**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص١٢٣-١٢٤.

وقد ثارت ثورة الإمام على هذه البدع والخرافات التي خيمتْ ظلالها على أرجاء المجتمع بأسره، فوجدناه يحذرهم -بكلّ حزم وشدة- قائلاً: "فليعلم إذاً أهل البدع والخرافات أنّ نجوم طلاسمهم قد أَفَلَت، واستعيض عنها ببزوغ شموس الحق، ومصابيح الإرشاد إلى طريق الدين القويم، فليريحوا أنفسهم من طلبات لا تعود عليهم إلا بالخيبة والنكال، وليعوّدوا أنفسهم على التمسك بعروة الشرع، والاستضاء بنور الحق، فإنه عما قليل تنقشعُ ظلماتهم عن قلوب العامة، فلا يَصغون لكلماتهم المبهمة، ولا يعبأون بأعمالهم الشعوذية، ذلك خير لهم من أن يحاولوا إعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسراً، بل متعذراً."[١٨]

ثانيّاً: أثر التصوُّف على حال المسلمين

إنّ الصوفيةَ الصادقين هم "معدنُ جميع العلوم، ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة، سالفاً ومستأنفاً، وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة... ."[١٩] بيد أنّ كثيراً منهم لم يثبت على هذا المنهاج المعتدل، وإنما انحرفتْ قلوبهم عن متابعة السنة، والاقتداء بأئمة الهدى؛ لذا وجدنا الإمام محمد عبده يجسد لنا حال المسلمين، ومدى ضعفهم عقيدة ومنهجاً ومسلكاً، وذلك ببركة التصوف واعتقاد أهله، فيقول: "فلينظر الناظرون إلى أين وصل المسلمون ببركة التصوف واعتقاد أهله بغير فهم ولا مراعاة شرع: اتخذوا الشيوخ أنداداً، وصار يُقصد بزيارة القبور والأضرحة قضاء الحوائج، وشفاء المرضى، وسعة الرزق، بعد أن كانت للعبرة، وتذكّر القدوة، وصارت الحكايات الملفقة ناسخة فعلاً لما ورد من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتعاون على الخير."[٢٠] وهكذا نلاحظ من خلال هذا المقال تغيّر حال الصوفية وانقلاب مقاصدهم ونياتهم الحسنة إلى مفاسد وأضرار أدتْ إلى نتائج سيئة، وعواقب وخيمة. "ونتيجة ذلك كله أنَّ المسلمين رغبوا عمّا شرع الله إلى ما توهموا أنه يُرضي غيره

---

[١٨] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٧.

[١٩] الطوسي، **اللمع**، مرجع سابق، ص٤٠.

[٢٠] رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ج٢، ص٦٢.

ممن اتخذوهم أنداداً له، وصاروا كالإباحيين في الغالب، فلا عجب إذا عمّ فيهم الجهل، واستحوذ عليهم الضعفُ، وحُرِموا ما وعد الله المؤمنين من النصر؛ لأنهم انسلخوا من مجموع ما وصف الله به المؤمنين."[21]

وقد أكّد الإمام في غير موضع من إبداعاته وكتاباته أنّ المقصد الأول للتصوّف هو تهذيب الأخلاق، وتربية النفوس تربية روحية سليمة، عمادها الاقتداء بالكتاب والسُّنّة، وسيرة سلف الأمة من الصحابة، وأئمة التابعين والمجتهدين، فيقول: "وكان الغرض منه في أول الأمر تهذيب الأخلاق، وترويض النفس بأعمال الدين، وجذبها إليه، وجعله وجداناً لها، وتعريفها بأسراره وحكمه بالتدريج."[22]

ولكن ما كان لأهل التصوف من صحة القصد وحسن المبدأ قد فسد -كما يرى الإمام- على مرّ الأزمان، فقد أسرفوا في ممارسة الزهد، واحتقار خيرات هذه الدنيا، وربما كانوا من أجل هذا مسؤولين عن كثير من المفاسد والبدع والخرافات التي انتشرتْ فيما بعد في بلاد الإسلام.[23]

ومن خلال ما ارتآه الإمام محمد عبده يتبين لنا أنّ التصوّف لم يثبت على حالته الأولى في صفائه ونقائه، وخلوه من الشوائب والمنكرات، وكما قدمه قدماء الصوفية الخلّص من أمثال الجُنيد، والخراز، وإنما أصابته -مع مرور الزمان- علل وأدواء فلانتْ شوكته، وضعفت قوته، بل صار سبباً أكيداً في ضعف الأمة وهوانها على أعدائها. مما حدا الإمام -وهو صاحب غيرة شديدة على الإسلام وأهله- للتصدي لمثل هذه البدع والآفات التي تفتك في بنيان المجتمع المسلم، محاولاً -قدر طاقته- تسليط الضوء عليها حتى يمكن معالجتها، وإيقاف مفعولها السلبي في جسد المجتمع.

يتبين مما سبق أنّ الممارسات الخاطئة لأدعياء التصوف تمخضتْ عن آثار قبيحة للتصوف نرصدها في النقاط الآتية:

---

[21] المرجع السابق، ج٢، ص٦٢.

[22] المرجع السابق، ج٢، ص٥٩.

[23] أمين، **رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده**، مرجع سابق، ص١٨١.

١. الإسراف والغلو في ممارسة الزهد، واحتقار خيرات الدنيا وطيباتها.

٢. الخلل في الفهم العقدي، فصار يُقصد بزيارة القبور والأضرحة قضاء الحوائج، وشفاء المرضى، وسعة الرزق.

٣. التقاعس والتكاسل عن العمل، والتطبيق المغلوط لمفهوم القضاء والقدر.

٤. انتشار الجهل والخرافات والحكايات الملفقة بين المتصوفة.

ثالثاً: الإمام محمد عبده صوفيّاً

يبدو أنّ الإمام محمد عبده من أبرز المفكرين الذين تصدّوا لمعارضة أغاليط الصوفية وشبهاتهم الزائفة، وليس "بدعاً -كذلك- أن نرى الأستاذ الإمام وقد نهض معارضاً أصحاب الطرق الصوفية الذين انتشروا في العصور الأخيرة في بلاد الشرق، لقد عانى محمد عبده أمرهم معاناة شخصية؛ إذ كان في صدر شبابه صوفيّاً، ثم كان على دراية بحال أهل عصره، فاستطاع أنْ يدرك الأخطار الحقيقية التي تنشأ عن موقف المتصوفة بإزاء مشكلات الحياة العاملة."[٢٤]

وجدير بالتنويه أنّ الإمام من الصفوة التي امتلكت مقومات النزعة النقدية ومؤهلاتها القويمة، فلم يكن نقده للجوانب الصوفية نقداً لمجرد الترف العقلي، أو دون تمحيص ودراية، أو بعيداً عن أرض الواقع الصوفي، وإنما هو نقد متأصل بالروح العلمية التي تشرئب -دوماً- إلى عشق الحقيقة، والموضوعية، والأمانة في الطرح والمعالجة. بالإضافة إلى معايشة الإمام ومخالطته للصوفية، فقد جمعته علاقة حميمة -بادئ الأمر- بشخصيتين حيويتين كان لهما أثر طيب في نفسه، وهما الشيخ درويش خضر، والسيد جمال الدين الأفغاني. ولعل "علاقة محمد عبده منذ نشأته بالتصوف من خلال الشيخ خضر -أحد أخواله- وفي أوج شبابه من خلال شيخه جمال الدين الأفغاني ذي المشرب الروحاني -أيضاً- هي التي منحته الاعتدال والتوازن بين العقلانية والروحية، وبين السلفية والصوفية، وبين النَّصية والعرفان، هي التي هيأته لريادة الفكر المصري، والحفاظ على الصلات

[٢٤] أمين، **رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده**، مرجع سابق، ص١٨٢.

الحسنة بين الأزهريين والصوفية؛ الأمر الذي امتد بعد ذلك في رجال القرن الماضي والصحوة المعاصرة."[٢٥]

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن أن يُنكَر "أثر الشيخ درويش بتربيته الصوفية في نفس أستاذنا، فإنّ ذلك الشيخ الصوفي وجّه كل عواطف الشباب في نفس الفتى إلى اللذائذ القدسية لذات العارفين. وإذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الأذواق بفنون الجمال الحسي، فإن التربية الصوفية تدعو إلى تلطيف السِّر بأنواع من الرياضة."[٢٦]

ولقد كانت صحبته للشيخ درويش مفتاح خير جلب له أبواب السعادة؛ إذ يقول عنه: "وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي ردّ لي ما كان غاب من غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع من فطرتي."[٢٧] وقد كان حديثهما -في بداية الأمر- يدور حول الرسائل التي جلبها الشيخ درويش من أسفاره، وهي "تحتوي على شيء من معارف الصوفية، وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا."[٢٨] ومن هنا فلا نجانب الصواب إذا سلّمنا بأنّ هذه "التعاليم الصوفية من شأنها أنْ تُربي الوجدان، وتلطف السر، وتجمل النفس وتزينها، ولا جرم كان الشيخ عبده صوفي الأخلاق."[٢٩]

وعلى الرغم من بساطة هذا الشيخ الذي أخذ يشتغل بما يشتغل به الناس من فلح الأرض وكسب الرزق بالزراعة، فإنه -في أيام قلائل- جنح إلى ترويض جماح الفتى (محمد عبده) وتهذيبه بالأخلاق الفاضلة، مما قوى لديه الدافعية والأمل في تحصيل العلوم واكتساب المعارف التي تخدمه في النهوض بمجتمعه، ولذا يبين الإمام تغيُّر حاله كُلّيةً من الضيق إلى السّعة، ومن أغلال الجهل إلى فضاء المعرفة، فيقول: "فلم تمض عليّ بضعة

---

[٢٥] الشافعي، **فصول في التصوف**، مرجع سابق، ص٢٠٠.

[٢٦] عبد الرازق، مصطفى. **محمد عبده**، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٩٧م، ص٢٧.

[٢٧] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣.

[٢٨] المرجع السابق، ج١، ص٢٢.

[٢٩] عبد الرازق، **محمد عبده**، مرجع سابق، ص٢٧-٢٨.

أيام وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيّقاً، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً، وعظم عندي من أمر العرفان، والنزوع بالنفس على جانب القدس ما كان صغيراً، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا همّ واحد وهو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجد إماماً يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد."[٣٠]

وهكذا كان الشيخ درويش سنداً للإمام في بداية حياته، وفي الأيام التي كان يقيمها -عند عودته من الأزهر- في بلدته، فيدارسه القرآن الكريم والعلوم الأخرى إلى يوم سفره، ثم يطلب منه الاستزادة من طلب العلم، وأن يدرس المنطق ومبادئ الحساب والهندسة[٣١] وغير ذلك من العلوم الحكمية والكلامية.

ونلاحظ مما سبق إيراده ضرورة التسليم الجازم بأثر طيب تركه هذا الشيخ الصوفي في نفس محمد عبده، ويمكن أن نجمل هذا الأثر في النقاط الآتية:

١. الشيخ الصوفي هو الذي دفع الإمام إلى طريق التصوّف العملي المبني على المجاهدة الصادقة، وتصفية القلب من العلائق، وتلطيف السر بأنواع من الرياضة.

٢. هو الذي ألزمه العزلة، وعدم الكلام إلا للضرورة حتى قال الإمام عن نفسه: "كنت أستغفر الله إذا كلمت شخصاً كلمة لغير ضرورة."[٣٢]

٣. وكذلك هو الذي طلب منه مخالطة الناس والتحدث معهم، والتعرض لانتقادهم إن تطلب الأمر ذلك.[٣٣]

٤. بين له أنّ طريقتهم هي الإسلام، ووردهم القرآن الكريم فهماً وتدبراً.

٥. هو الذي حضّه على تعلم مبادئ الحساب، والهندسة، والمنطق، والعلوم الحكمية.

---

[٣٠] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٣.

[٣١] المرجع السابق، ج١، ص٢٤.

[٣٢] المرجع السابق، ج١، ص٢٤.

[٣٣] أمين، أحمد. **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٩م، ص٢٦١.

وقد وجد الإمام فرصة سانحة لتعلّم هذه العلوم المختلفة واقتباسها من أهلها؛ وذلك عندما قابل السيد جمال الدين الأفغاني، ليرشده ويوجهه إلى ضرورة تحصيل أمثال هذه العلوم، ولا سيما العلوم العقلية، مما حداه إلى التلقي ودعوة الناس للتلقي عنه.[٣٤] ويصف الإمام موقفه من قدوم الأفغاني فيقول: "وبينما أنا كذلك؛ إذ أشرقت شمس الحقائق، فوضح لنا بها رقائق الدقائق بوفود حضرة الحكيم الكامل، والحق القائم بأستاذنا السيد جمال الدين الأفغاني... فرجوناه في شيء من ذلك، فأجاب والحمد لله على ذلك، وكان ذلك في سنة ١٢٩٠هـ، فنلنا بذلك طرائف التحف."[٣٥] ولا يكتفي الإمام بهذا، بل يصف أستاذه الأفغاني بأفضل السّمات، خالعاً عليه ثوب الكمال العقلي فيقول: "وهو في جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل أو يطهّر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور، أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشؤون العامة، مما يمس مصلحة البلاد وسكانها."[٣٦] مما ينم عن أنه لم يألُ جهداً في سبيل نهضة البلاد، والتفاني في إصلاح النفوس ويقظتها من سباتها، وتخليصها من شوائب الجهل والخمود.

إذن، فقد وجد الإمام عند أستاذه الأفغاني "روحاً جديدة لا نظير لها في التعاليم الأزهرية، وجد عنده مذهباً فلسفيّاً واحداً، ونظرة إلى الحياة عميقة، وصورة عن الكون منظمة، ولكن أهم ما استمده التلميذ من أستاذه هو الميل إلى الحرية ويقظة الوعي القومي."[٣٧]

أما عن أثر التصوّف في حياة الأستاذ الإمام، فقد اكتملت سعادة الإمام الروحية بسماعه دروس التصوّف وتفسير القرآن من السيد جمال الدين، فهما أحبُّ الدروس إلى نفسه، وأكثرها قبولاً لديه؛ لذا فقد وصفها بأنها قرة عينه[٣٨] كما قيل: "التصوف والتفسير هما قرة عين الشيخ محمد عبده أو كما قال مفتاح سعادته."[٣٩]

[٣٤] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٤.

[٣٥] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٥.

[٣٦] المرجع السابق، ج١، ص٥٢٩.

[٣٧] أمين، عثمان. **رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، ص٦١.

[٣٨] بالي، ميرفت عزت. **التصوف في حياة الإمام محمد عبده**، ضمن: **الشيخ محمد عبده مفكراً عربيّاً ورائداً للإصلاح الديني والاجتماعي**، مرجع سابق، ص٢٣٩.

[٣٩] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج١، ص٢٦.

ويرى الأستاذ العقاد أنّ الإمام لم يبتعد عن طريق المتصوفة طيلة حياته فيقول: "ولقد تصوَّف مُصلِحُنا العظيمُ زمناً في صباه، ولا نخاله ابتعد من طريق المتصوفة إلى ختام حياته."[٤٠] كما أنه جمع في رياضته النفسية والفكرية بين أهل الظاهر والباطن، فلم يكن قطُّ من أهل الظاهر الذين يأخذون بالحرف، ويدينون بالتقليد، ولم يكن من أهل الباطن الذين يرفضون الظاهر وينقطعون عن الواقع والحياة العملية وشواغل المعيشة، أو الذين يحسبون الباطنية ضرباً من الدروشة والمسكنة، وهكذا كان رفضه "للظاهر رفضاً للقشور وألوان الطلاء، وكان بحثه عن الباطن بحثاً عن حقيقة المعنى الصحيح من وراء اللفظ السقيم."[٤١]

إنّ هذه التجربة التي عاشها الإمام محمد عبده فعلاً وممارسة (انقطاعاً، وتوحّداً، وعزلة)، وفكراً (تأملاً ونظراً، وكتابة)، قد تركت أثرها الشامل على مجمل مشروعه الفكري، فقد ساهمت بمنح مشروعه الإسلامي التنويري نفحات إيمانية متسامية روحيّاً وأخلاقيّاً تلامس رعشة المطلق، فكان من نتائج ذلك:[٤٢]

١. النزعة السلمية التي ميزت ممارسته الحياتية والفكرية والسياسية، ولعل ذلك يفسر لنا افتراقه عن أستاذه (الأفغاني) الذي شغفه حباً، فقد تباعد عنه نظراً للروح التمردية الانقلابية عند الأفغاني، بينما كان الإمام يرنو إلى مشروع يتأسس على الحريات السياسية والديمقراطية، ويعمل على مراكمة الوعي المدني انطلاقاً من منبر مستقبلي يرى أنّ أوروبا هي نموذجه الذي ينبغي امتلاكه، وأن هذا النموذج لا يتعارض مع الهوية الإسلامية.

٢. كان شديد الحرص على إصلاح الأزهر مؤسسةً ونظاماً.[٤٣] وعندما أحسّ

[٤٠] العقاد، عباس. **عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده**، القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٨١م، ص١٦٤.

[٤١] المرجع السابق، ص١٦٤-١٦٥.

[٤٢] عيد، عبد الرزاق. "الإمام محمد عبده ولادة المثقف الحديث"، **المجلة الثقافية**، مقال بتاريخ ٢٠٠٦/٩/٤م، الموقع الإلكتروني: www al-jazirah.com/culture

[٤٣] إنّ الإصلاح الذي كان ينشده الإمام في الأزهر قسمان: صوري ومعنوي، فأمّا الصوري فهو (١)- النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة الاجتماعية. (٢)- توسيع دائرة العلوم والمعارف. (٣)- ترقية اللغة العربية. وأما الإصلاح المعنوي فهو (١)- إصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم. (٢)- صحة القصد فيه بما يفضي إلى ارتقاء الأمة في دينها ودنياها. (٣)- إصلاح الأخلاق بالصدق والإخلاص وعزة النفس والسخاء والوفاء ...إلخ. انظر:

باليأس من إصلاحه قال: "إنني لا أيأس من الإصلاح الإسلامي، بل أترك الحكومة، وأختار أفراداً من المستعدين، فأربيهم على طريقة التصوّف التي رُبيت عليها، ليكونوا خَلفاً لي في خدمة الإسلام."[٤٤]

٣. إنّ الروح الصوفية الذي انطوى عليه جناح الإمام ارتقى به ذُرَى الوعي في اكتناه القيم الروحية للإسلام، واستيعابه بوصفه هوية مدنية حضارية وتجسيده له ممارسة أخلاقية: "لقد تجلى أثر التصوّف والتعاليم الصوفية على نفس الإمام في أخلاقه فكان صوفي الأخلاق."[٤٥]

٤. ولقد ساهمت علاقته بالأفغاني، ليس بتعرّفه الفلسفي على الصوفية فحسب، بل شدَّته هذه العلاقة من سلوك الصوفية بوصفها طريقة تدفعه باتجاه عالم الداخل، إلى صوفية تأملية عرفانية رفيعة، انطلاقاً من أن الاهتمام بالفلسفة له الأولوية بوصفها أمّ العلوم الاجتماعية، ومن حينها راح يشتهر بوصفه كاتباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية، من خلال المقالات التي راح ينشرها في جريدة الأهرام.

٥. إنّ الروح التربوية والتعليمية ستبدأ منذ هذه المرحلة تتغلغل داخل الشيخ الذي بدأ بتأثير أستاذه الأفغاني يستشعر داخلياً بأنه مندوب لرسالة، بعد أن خرج من عزوفه التصوفي الاستغراقي الداخلي في (الحق)، ليتوجه بالاندفاع إلى الاستغراق الخارجي في شؤون الخلق، مما سيجعل من هذه الأطروحة: (إن الاستغراق بالحق هو الاستغراق بالخلق) بمثابة شعار أخلاقي لنخبة ذلك الزمن النهضوي الطامح للخروج من استغراق أزمنة العصور الوسطى إلى الانغماس بميلاد عصر جديد.

وكذلك ارتضى الإمام لنفسه طريقة من الطُّرق الصوفية، وهي طريقة أبي الحسن الشاذلي، فيقول: "إنني أنا أحترم أبا الحسن الشاذلي، وأنا من أهل طريقته، لم أسلك غيرها، ولكن ليس كل ما ينسب إليه يصح عنه، بل قال لي شيخي الذي سلكتُ عليه

- رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج١، ص٥٦٧.

[٤٤] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٦. انظر أيضاً:

- عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٥٢.

[٤٥] عبد الرازق، **محمد عبده**، مرجع سابق، ص٢٧-٢٨.

الطريقة: إنّ هذه الأحزاب المنسوبة لسيدي أبي الحسن لم تصح عنه."[٤٦] وفي اعتقادي أنَّ المنهج -الذي اتبعه الإمام في العرض السابق ذكره- منهج في غاية الإتقان؛ لأنّ اعتناقه لطريقة "الشاذلية" لم يفرض عليه التسليم الأعمى لكل ما يُنسب لهذه الطريقة، وإنما استند على مبدأ النقد والتمحيص للأخبار والروايات المنقولة، ومدى صحة ما يُنسب إلى شيخه سيد الطريقة التي يسلكها. وهذا التنقيح وتبين الحقائق منهج إسلامي أصيل أكدته تعاليم الإسلام، وانتهجه أهل الحديث وغيرهم، وطبّقه الأستاذ الإمام في الإشارة السابقة.

وكانت للإمام مناقشات ومساجلات ومحاورات مستمرة مع بعض مشايخ الصوفية، مثل الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ محمد الدلاصي من المتصوفة آنذاك، وذلك في يوليو سنة ١٩٠٤م، وقد جمع هذا المجلس مجموعة مختارة من علماء الأزهر ومشايخ الصوفية مثل: السيد محمد رشيد رضا، وشيخ الجامع الأزهر الشيخ علي الببلاوي[٤٧] وغيرهما، وكان موضوع الجلسة مقصوراً على قضية الولاية والأولياء.[٤٨]

والولاية هي أساس التصوّف وجوهره، وهي غاية من أعظم غاياته؛ إذ يسعى الصالحون المخلصون من الصوفية إلى الوصول إليها، والتحقق بمقامها. أما كلمة الولاية في اللغة فهي تأتي بمعانٍ متعددة، منها: القرب والدنو، والمحبة والنصرة، ويسمى الموصوف بها وليّاً، والجمع أولياء.[٤٩]

ولفظ الولي -كما يرى القشيري في رسالته- له معنيان: أحدهما فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله سبحانه أمره، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ (الأعراف: ١٩٦). والثاني: فعيل مبالغة

---

[٤٦] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٤٦.

[٤٧] هو الشيخ علي بن محمد بن أحمد المالكي الحسني الإدريسي، من مواليد محافظة أسيوط، نسبته إلى بلدته ببلا، ولد سنة ١٨٣٥م، وتوفي سنة ١٩٠٥م. انظر:

- موقع دار الإفتاء المصرية، بتاريخ ٢٠١٢/٩/٢٣م.

[٤٨] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٤١-٥٤٩.

[٤٩] مدكور، عبد الحميد. **نظرات في التصوف الإسلامي**، القاهرة: دار الهاني، ٢٠٠١م، ص١٧٩-١٨١.

من الفاعل، وهو يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي وليّاً.[٥٠] وقد ورد في القرآن الكريم تحديد لوصفين من أهم الأوصاف التي يجب أن تتحقق في أولياء الله تعالى، وهما الإيمان والتقوى؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ (يونس: ٦٢-٦٣). فالإيمان والتقوى بمعناهما الجامع هما أهم شروط الولاية،[٥١] وكل من تحقق بهما كان لله وليّاً، وكل من ادّعى الولاية، ولم تحقق فيه شروطها، فليس بولي لله تعالى، حتى وإن أضيفت إليه الكرامات وخوارق العادات.

وعلى الجانب الآخر ثمة مجموعة من الفتاوى المتعلقة بالتصوّف مثل التوسل بالأنبياء والأولياء،[٥٢] وقد كان الإمام محمد عبده يجيب عن هذه التساؤلات بوصفه مفتياً للديار المصرية. ففي جوابه على من يتساءل عن جواز التوسّل بالأنبياء والأولياء، فإنه يؤصل لعدة قواعد مهمة في هذا الباب، أوجزها في النقاط الآتية:

أ. إذا كان التوسّل المقصود لطلب القرب من الله تعالى، فقد أخبرنا الله ﷻ بأنه قريب مجيب، وخبره صدق.

ب. إن الذين يزعمون التوسل بالجاه يتكلمون فيه بالمبهمات، ويسلكون طرقاً من التأويل لا تنطبق على ما نفوس الناس، بل هي محض ظنون وأوهام.

ت. ويرى -كذلك- أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عند ما جاءوا به، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه بإذن ربهم. وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم.

ث. يرفض الإمام تشبيه الأنبياء والأولياء بالجبارين من أهل الدنيا، الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل.

---

٥٠ القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ص٤٣٦.

٥١ مدكور، **نظرات في التصوف الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٨٠-١٨١.

٥٢ عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٣٥-٥٣٩.

وكان الإمام -أيضاً- حريصاً على نقد العادات السيئة والأخطاء المضللة، والآفات التي كانت تنخر في عظام المجتمع حتى أهلكته رويداً رويداً. وقد شمل هذا النقد جوانب المجتمع العقلية والأخلاقية والاجتماعية والدينية.

وربما كانت هذه الإشارات كافية لخوض الإمام غمار التجربة الصوفية، ونقد الخرافات والأوهام التي تصدر عن بعض المنحرفين عن مسار الطريق الصوفي الحقيقي.

وفيما هو آت عرض لجملة من النماذج والشواهد لنقد الإمام للتصوف وأدعيائه.

رابعاً: مجالات نقد التصوف عند الإمام محمد عبده

يمكن للباحث أن يقسم مجالات نقد الإمام محمد عبده لممارسات بعض المتصوفة إلى جانبين: الجانب الأول: مجال الممارسات العملية، والجانب الثاني: مجال الممارسات النظرية.

١. مجال الممارسات العملية:

أ. الموالد وزيارة الأضرحة:

يرسم الإمام صورة ساخرة -في أسلوب أدبي لاذع- للموالد[٥٣] عند الصوفية وأقطاب الطريق، فهي أسواق الفسوق،[٥٤] ومقر المنكرات مثل حانات الخمر، والمراقص، وفيها -كذلك- صنوف أخرى متعددة من الفحش في القول والفعل يقصد بها إمتاع الناس وإضحاكهم.[٥٥] بالإضافة إلى ذلك نجدهم يتخذون أشكالاً متنوعة من الطبول مثل طبل

[٥٣] يقول الشيخ محمد رشيد رضا كاشفاً وجهاً مجازيّاً وحقيقيّاً في آن واحد لكلمة المولد: "ويظن اللغوي لأول وهلة أن إطلاق المولد على هذا الاجتماع الخاص المعروف ليس له مجاز إلى اللغة، ولا يمس حقيقتها. لكنه لا يلبث ريثما يرجع الطرف إلى المجتمع في مسجد السيد البدوي رضي الله تعالى عنه في مثل الأسبوع الفائت، إلا وينجلي له وجه للتسمية وجيه: ذلك أنه يرى المجتمع تتولد فيه البدع والمنكرات، والسفه والجهالة، وكل فعل مذموم مشئوم". انظر:

- رشيد، محمد رضا. **مجلة المنار**، القاهرة: مطبعة المنار، ط٢، ١٣٢٧هـ، عدد٥، مج١، ص٨٢.

[٥٤] نلاحظ اختياره لكلمة "أسواق" للتقليل والحط من شأن المكان، فأسوأ الأماكن وأشرها الأسواق.

[٥٥] رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٦١.

الباز، كما أنّ بعض هذه الطبول مستطيل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذِّكر، وله صوت أشبه بصوت المدفع. وبعضها الآخر مستدير يُعرف بالطَّار، إلا أنه كبير ينشأ عن ضربه صوت عنيف يصمُّ الآذان؛[٥٦] وذلك عن طريق استعمال أدوات معينة تجعل الصوت عالياً لافتاً للأنظار، ثم يهيمون بعد ذلك هيام المعاتيه، بل يتجرد بعضهم عن ثيابه، ويأخذ جذوات من النار ويدخلها في فيه، ويلامس بها بدنه؛ إظهاراً للكرامات وخوارق العادات.

وللأغنياء نصيب في المشاركة في إقامة هذه الموالد من خلال الأموال الهائلة التي ينفقونها زاعمين التقرب بها إلى الله -سبحانه وتعالى-، كما أن المشاركة قائمة، من جانب بعض شيوخ الأزهر الذين يدعمون مثل هذه الحفلات، ويحضرون -في رحابة وسرور- إلى الموائد الضخمة التي أعدّها الأغنياء بنفقاتهم السخية.[٥٧]

ولم يرتض الإمام هذه الأفاعيل؛ إذ صرح -والحق معه- أنّ هذه النفقات وتلك الأموال إنما هي في سبيل الشيطان؛ لأنّ ما يجري في الموالد من صنوف المنكرات لدليل ساطع، وبرهان قائم على منافاة هذه الوسائل في التقرب إلى الله تعالى. كما أنه لو طلب من أحد هؤلاء الأغنياء بعض المال لأداء منفعة وجلبها، أو لإزالة منكر والتغلب على أضراره، أو لمساعدة أحد المجاورين للأزهر، لإعانته على طلب العلم والتقرب إلى الله ﷻ لبخل وضنّ بماله، وربما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ (القصص: ٧٨).

ولم يقتصر دور الإمام على النقد والتهكُّم من الخرافات والخزعبلات التي يقدمها بعض المتصوفة بين يدي المولد، بل دعا أحد المحتفلين بهذه الموالد إلى جعل نفقاته من أجل طلاب العلم، كي تكون عوناً لهم على قضاء حوائجهم والاستعانة بها فيما يخدم أغراضهم المختلفة،[٥٨] ويكون هذا العمل تسليطاً للمال في وجهته الصحيحة، كما أوصى رسول الله ﷺ قائلاً: "لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي

[٥٦] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٥.

[٥٧] رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٦١.

[٥٨] المرجع السابق، ج٢، ص٦١.

الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا،"[٥٩] كما أنه يصنع لهم معروفاً؛ "وصنائع المعروف تقي مصارع السوء،"[٦٠] وتكون النتيجة الدعوة الصادقة من جانب الذين أصابهم هذا الجميل. وقد قيل:

ازرع جميلا ولو في غير موضعهِ   فلن يضيع جميلٌ أينما زرعا
إنّ الجميلَ وإنْ طال الزمان به   فليس يحصده إلا الذي زرعا

لكنه لم يجد منهم –أي المحتفلين بالموالد– مستجيباً لكلامه، ولا متبعاً لمنهاجه.

قدّم النصيحة لأحد وجهاء المصريين بخصوص زيارة "مولد السيدة زينب رضي الله عنها"، لكن هذا الوجيه أبى واستنكف، ولم ينته وقبل أن يغادر إلى هذا المولد المشهور وجه إليه الإمام هذه الكلمات المضيئة عساها أن تجد قلباً حيّاً يستجيب لنبض هذه الأفكار فيقول: "إنّ هذا العمل من أعمال الوثنيين، وإنَّ الإسلام يأباه. كلُّ آيات القرآن في التوحيد تنهى عن هذا وتذمه، إنّ الفاتحة التي تقرأونها كل يوم في صلاتكم مراراً تنهاكم عن هذا العمل. تخاطبون الله تعالى فيها –بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥)–كذباً، فإنكم تستعينون بغيره، وتعبدون غيره، ثم إنّ عملكم هذا متناقض حيث تهدون الفاتحة إلى مَنْ تزورونه؛ إذ معناه أنه محتاج إليكم، وينتفع بفاتحتكم، ثم تطلبون منه قضاء حوائجكم."[٦١]

ويبدو من خلال ما سبق "تعظيم الصوفية لقبور المشايخ تعظيماً دينيّاً مع الاعتقاد بأن لهم سلطة غيبية تعلو الأسباب التي ارتبطت بها المسببات بحكمة الله تعالى بها يديرون الكون، ويتصرفون فيه كما يشاءون، وأنهم قد تكفلوا بقضاء حوائج مريديهم والمستغيثين بهم أينما كانوا."[٦٢]

---

[٥٩] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٩٨٧م، باب: إنفاق المال في حقه، ج٢، ص٥١٠.
[٦٠] الطبراني، سليمان. **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد، الموصل: مكتبة العلوم والحكم، ط٢، ١٩٨٣م، باب: صدى بن العجلان، ج٨، ص٢٦١.
[٦١] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٥٥.
[٦٢] رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٩.

وقد فطن الإمام إلى خطر هؤلاء الغلاة من الأدعياء على الدين، فأشار إلى أثرهم في تخلف المجتمع وتقوقعه؛ لأنهم طائفة تميل إلى غرائب النوادر وعجائب الأساطير، ويحيون في عالم كله معجزات وكرامات يُضفونها على أسيادهم من الأولياء؛ ولذا أقاموا "الأضرحة على أجداث رؤسائهم وشيوخهم، وجعلوها كالكنائس التي تضم رفات بعض الشهداء والقديسين. وشرعوا لهم التقرب بالشموع والنقود للتوسل لساكني القبور والتبرك بآثارهم، وقراءة آيات أو سور من القرآن على قبورهم طلباً للشفاعة."[٦٣]

والعجيب -أيضاً- أنهم يدعون الاحتفال بكرامة الولي وسط هذه الأمواج من البدع والمنكرات، فكيف يسلم عاقل بأن التقرب إلى الله تعالى -من خلال هؤلاء السادة الأقطاب- يندرج مع سلسلة من المنكرات والخزعبلات في آن واحد وبقعة واحدة؟ فكأنهم يرون "كرامة الشيخ الذي يحتفلون بمولده تبيح المحظورات، وتحل للناس التعاون على المنكرات."[٦٤]

وينبه الإمام إلى ضرورة تصحيح هذه الأغاليط والمعلومات الخاطئة في ضوء عقيدة التوحيد كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ (الإخلاص: ١) والصمد هو "الذي يقصد في الحاجات ويتوجه إليه المربوبون في معونتهم على ما يطلبون، وإمدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم، والإتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر كما هو معروف عند أهل اللغة، فلا صمد إلا هو."[٦٥]

ومما ينضاف إلى ما سبق عرضه ما يتعلق بحرمة المساجد وضرورة صيانتها عما لا يليق بها، لذا وجدنا تركيز الإمام في حفظ مكانة المساجد، وبيان حرمتها يأخذ حيزاً كبيراً من تفكيره، فقد نبّه على ضرورة منع وسائل التشويش التي تعطّل أداء المصلين في بيوت الله ﷻ، بل يجب منع أي لفظ مما قد يوجب تشويشاً على المصلين، أو إخلالاً بحرمة المساجد اتّباعاً لنصوص الشريعة الغراء. ومن الأمور التي ارتضى وأوجب منعها "الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد

[٦٣] قاسم، **الإسلام بين أمسه وغده**، مرجع سابق، ص٢٧.
[٦٤] رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٦١.
[٦٥] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٣٦.

والأربعاء بمسجد السيدة زينب، ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين؛ إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة يُنكرها الشرع والطبع جميعاً، ويجري فيها من الفعال القبيحة ما لا يليق ذكره، ولا يدع الازدحام مكاناً لمُصلٍّ يُصلِّ فيه، وإن وجد المكان فقلما يستطيع أداء الأركان دون تشويش فيها."[٦٦]

ب. نقد العادات "الدوسة نموذجاً":

من العادات السيئة التي أَلِفها بعض المتصوفة حيناً من الدهر عادة الدُّوسة، وهي تعني "أن ينطرح الناس مصطفين أحدهم لجنب الآخر، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهي إلى آخرهم."[٦٧]

ولم تجد هذه العادة من جانب الإمام إلا نقداً ونقضاً لها من جذورها، وهو نقد – كما يبدو لنا– مؤسس على قواعد منهجية كما يبدو من النقاط الآتية:

– لقد أمر الله –تعالى اسمه– بتكريم بني آدم على سائر الحيوانات مطلقاً، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء: ٧٠)، فهل يليق بعد هذا التكريم أن يطرح المؤمن نفسه مهاناً ذليلاً على التراب، ليطأه حافر من البهائم؟ أين ذهبت عقول الناس؟ أم استنامتْ عقولهم كما نامت أجسادهم تسليماً واستسلاماً؟ ألم تنهَ الشريعة الغراء عن إهانة أجساد الأموات؟ فما بالنا بالأحياء.

– في هذه العادة محظورات شرعية مثل إهانة المؤمنين، والتعرض للخطر "فإنه لا يؤمن أن تفلت رِجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة، فترض عضواً يابساً، أو تبتك عضواً رخواً، ويكون فيه تلف المصاب، وإن التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب."[٦٨]

[٦٦] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٥-١٣٦.
[٦٧] المرجع السابق، ج٢، ص٥١.
[٦٨] المرجع السابق، ج٢، ص٥٢.

- وإذا ما استند العامة -في اعتقادهم بالدوسة- على أن أصلها كرامة لأحد المشايخ وهو الشيخ "يونس"[٦٩] الذي كان يدوس بحصانه على آنية من الزجاج فلا تنكسر، فإن هذا الأمر مردود من جانب الإمام محمد عبده من عدة وجوه:

أما الوجه الأول فهو دعوى أنها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السُّنة والجماعة؛ وذلك لأن من شروط الكرامة ألا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته، فثمة فريق يظن "أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء، وتتفاخر فيها همم الأصفياء، وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون."[٧٠] وإن صارت الكرامة عادة "يتعاطاها كل من يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدي أو يتولى مشيخة السعدية أياً كان فلا تكون من قبيل الكرامة، بل تعد من الحيل المذمومة."[٧١] وهذا يدل على أن الدوسة صارت عادة مستقرة، وصناعة متداولة بين الناس.

وجدير بالملاحظة أنّ موضوع الكرامة عند الصوفية هو منحة أو هبة من الله تعالى للعبد، وتأتي الكرامة للدلالة على صدق أحوال الصوفية، وهي لا تظهر إلا على يد الصادقين من الأولياء، وهي دليل على حسن متابعة العبد للشريعة. وحكي عن سهل بن عبد الله -رحمه الله- أنه قال: "الآيات لله، والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء ولخيار المسلمين."[٧٢]

أما الوجه الثاني فهو الشك في صحة الرواية فيقول: "ولو توسعنا في تلك الرواية -غير الموثوق بها- وقلنا: إن ذلك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضاً، ولم يلحقهم من ذلك ضرر، فهذا إنما كان -لو وقع- إظهاراً لأمر خارق للعادة على يد

---

[٦٩] الشيخ يونس من مشايخ الصوفية، وهو مدفون بجهة باب النصر، وقد روي عنه أنهم قاموا بصف الزجاج أمام مناسم حصانه، فركب الحصان ومر عليه من غير أن يصاب الزجاج بكسر. انظر:
- عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٥.

[٧٠] عبده، محمد. **رسالة التوحيد**، تحقيق: محمد عمارة، بيروت-القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٤م، ص١٨٣.

[٧١] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٢.

[٧٢] الطوسي، **اللمع**، مرجع سابق، ص٣٩٠.

رجل من المتقين، ولا يستلزم جواز وطء أجسام الرجال بحوافر الخيل،"[٧٣] وهكذا يستبدل الإنسان بالزجاج، ويصير الأمر عادة للناس في كل زمان ومكان.

والوجه الثالث -كما يرى الإمام- أنه إذا سلمنا بكون الأمر كرامة للشيخ يونس، فهذه منحة من الله -تعالى-، وذلك لا يفيد إباحة الدوسة، بمعنى "أن تصفّ الرجال منكبين على وجوههم، متلاصقي الأكتاف، يطأ ظهورهم حيوان من العجم، لم نشم من سيمته كرامة، ولم نتبين من حافره منهاج الصالحين."[٧٤]

وبناء على ما سبق ذكره، فإن الإمام يرفض هذه البدعة، ويسخر ممن يعتقد موافقتها للشرع، ولو بطريق التشبه عن بعد، كما أنه سعد أتم السعادة بقرار "السيد البكري" الذي أعلن في السنة الأولى من توليه نقابة الأشراف، بطلان الدوسة، وإلغائها من جميع الموالد والاحتفالات. ومن ثم يقول الإمام: "فتيقنا أن جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها، وأن أنوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا، فتطهر مرآة العقل من رجس الخرافات، وتحفظ هيكل الإنسان -الذي كرمه الله- من وطئه بمناسم الحيوانات."[٧٥]

٢. مجال الممارسات النظرية:

أ. نقد المصطلحات والمفاهيم:

يؤمن الإمام محمد عبده بأن للصوفية أذواقاً خاصة، وعلوماً وجدانية تحتاج إلى عبارات ومصطلحات معينة.[٧٦] ولا بد لمن يحصل له شيء من هذه النفحات الربانية،

---

[٧٣] المرجع السابق، ج٢، ص٥٥.

[٧٤] المرجع السابق، ج٢، ص٥٥.

[٧٥] المرجع السابق، ج٢، ص٥٤.

[٧٦] يقول أبو القاسم القشيري (توفي٤٦٥هـ): "وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها؛ إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلّف، أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم". انظر:
- القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ص١٣٠.

والإلهامات الذوقية، أن يتحلى بالصبر والمثابرة فلا ينقله لغيره بالعبارة، والسرّ في ذلك مرده إلى أن "هذا الذوق يحصل للإنسان في حالة غير طبيعية، ولكونه خروجاً عن الحالة الطبيعية لا ينبغي أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية."[٧٧]

ولم يكتف المتصوفة بالغموض في العبارة، وإنما "استخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادي سليم العقل عن فهمها، وقالوا إنها أسرار لا يرقى إليها إلا الخاصة، وإنه لا مدخل للعقل في إدراكها؛ لأنَّ العارف منهم متى وصل أدرك بذوقه ما لا يخطر بعقل بشر، وعند الوصول يستوي الجمع والإفراد، والكثرة والوحدة؛ أي إنّ للتصوف منطقاً دونه منطق العقل، أو هو مضاد له، إن صح أن يسمى منطقاً، ثم قالوا: إنَّ مَنْ رام التعبير باللغة عما يشاهده أهل التصوف في شطحاتهم يشبه أن يكون كمن يروم ذوق الألوان."[٧٨]

وقد انتقد الإمام محمد عبده جملة من الألفاظ والمفاهيم التي تصدر عن بعض الصوفية مثل قولهم بالحلول، وهو "الاعتقاد بحلول الذات الإلهية في موجود من مخلوقاته، وظهوره في صورته، ويكون الحلول في كل أو في بعض أجزاء ذلك المخلوق."[٧٩]

فماذا كان رد الإمام على هذه المصطلحات، يقول: "نعم صدر عن الصوفية كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا أن يكتب، ومنه ما يوهم الحلول، ولو كنت سلطاناً لضربت عنق من يقول به."[٨٠]

ويُعَدُّ القولُ بالحلول غلطاً في الأصول؛ لأنه غلط في المفاهيم والأفكار والمعتقدات، بما يخالف أصول الشرع أو مقتضيات تلك الأصول؛ فهو يدخل في البدع الاعتقادية،[٨١] ويعلل أبو نصر السراج الغلط في أي أصل من الأصول بقوله: "غلطوا في الأصول من قلة إحكامهم لأصول الشريعة، وضعف دعائمهم في الصدق والإخلاص، وقلة معرفتهم

---

[٧٧] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٥٢.

[٧٨] قاسم، **الإسلام بين أمسه وغده**، مرجع سابق، ص٢٦.

[٧٩] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٥٢، حاشية١.

[٨٠] المرجع السابق، ج٣، ص٥٥٢.

[٨١] الشافعي، **فصول في التصوف**، مرجع سابق، ص٢٩٩.

بذلك."[٨٢] وقد قيل في هذا الصدد: "إنما حرموا الوصول لتضييع الأصول."[٨٣] كما أن أبا نصر جعل من يعتقد شيئاً يخالف الأصول من الضلال، فيقول: "فمن غلط في الأصول فلا يسلم من الضلالة، ولا يرجى لدائه دواء إلا أن يشاء الله ذلك."[٨٤]

- ومن الألفاظ التي استنكر الإمام معناها في حديثه مع أحد وجهاء المصريين الصوفية، لفظ "المولد"، فدار الحوار على النمط الآتي:[٨٥]

الوجيه: أنا ذاهب إلى زيارة السيدة "زينب" رضي الله عنها.

الإمام: لم خصصت الزيارة بهذا اليوم؟

الوجيه: لأنه يوم المولد، وأن هذه الليلة هي الليلة الكبيرة.

الإمام: ما هذا المولد؟ أنا لا أفهم معنى لهذا اللفظ، هل يوم المولد أو الليلة الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين؟

وانتهى الحوار بأن هذا الوجيه لم يعبأ بكلام الإمام، وأصر –على موقفه بالذهاب إلى مولد السيدة– إصراراً.

وكذلك وجه الإمام سهام نقده إلى "الذِّكر" في مفهوم الصوفية، فيقول: "إن مقاصد الصوفية الحسنة قد انقلبت، ولم يبق من رسومهم الظاهرة إلا أصوات وحركات يسمونها ذكراً يتبرأ منها كل صوفي."[٨٦] فلم يعد الذِّكر مفهوماً عمليّاً باطنيّاً يهدف إلى تنقية النفس من شوائب العلائق، وإنما أضحى رسماً ظاهراً، يستنكف الصوفي الحق عن إجرائه.

ومن بين الألفاظ التي انتقدها الإمام محمد عبده لفظ "الجاه" في باب التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين، فيقول شارحاً مفهوم اللفظ وأبعاده: "إن لفظ الجاه الذي يضيفونه إلى الأنبياء والأولياء عند التوسل مفهومه العرفي هو السلطة، وإن شئت قلت

---

٨٢ الطوسي، **اللمع**، مرجع سابق، ص٥١٨.
٨٣ المرجع السابق، ص٥١٨.
٨٤ المرجع السابق، ص٥١٩.
٨٥ عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٥٥.
٨٦ رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠.

نفاد الكلمة عند من يستعمل عليه أو لديه، فيقال: فلان اغتصب مال فلان بجاهه، ويقال: فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجاهه لدى الأمير أو الوزير مثلاً. فزعم زاعم أن لفلان جاهاً عند الله، بهذا المعنى، إشراك جلي لا خفي."[٨٧]

ب. نقد المؤلفات الصوفية:

من المعلوم -للباحثين في التصوف- أن كلام الصوفية رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها الذين سلكوا الطريقة إلى نهايتها، فهم الخائضون غمار هذه التجربة الذوقية مقاماً وحالا ووجداً. وقد لاحظ الإمام أن كلامهم "في الطريقة وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والإشارة."[٨٨] لذا فالتعامل مع أقوال الصوفية وعباراتهم يحتاج إلى قدر كبير من الحيطة والحذر، ولا شك في أن الناظر في كتب محي الدين بن عربي يجدها "مملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله، وهذا كتاب الإنسان الكامل للشيخ عبد الكريم الجيلي هو في الظاهر أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام، ولكن هذا الظاهر غير مراد، وإنما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف مفتاحها."[٨٩]

وقد رأى الإمام أنه من الضروري ألا ينظر في المؤلفات الصوفية من هو ليس أهلاً لها، وإن حدث هذا، فربما يسعى جاهداً لتكفير القائلين بهذا الكلام أو المعتقدين لشيء منه، ومن ثم ليس بدعاً ما صنعه الإمام حينما منع طباعة كتاب "الفتوحات المكية"، والمؤلفات التي هي على شاكلته منهجاً وأسلوباً وفكراً. يقول الإمام موضحاً ذلك الحدث المهم: "إنني لما كنت رئيس المطبوعات أمرت بمنع طبع كتاب الفتوحات المكية وأمثالها؛ لأن أمثال هذه الكتب لا يحل النظر فيها إلا لأهلها."[٩٠]

وذهب كذلك إلى التفرقة بين مؤلفات رواد الصوفية مثل: الجنيد وسري السقطي وغيرهما، ومؤلفات أصحاب القرن العاشر ومن بعده، فيقول: "امرر ببصرك على طبقات الشعراني الكبرى، فإنك لا ترى فيها فرقاً كبيراً بين سيرة أئمة الحديث والفقه وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية

---

[٨٧] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٣٧-٥٣٨.

[٨٨] المرجع السابق، ج٣، ص٥٥١.

[٨٩] المرجع السابق، ج٣، ص٥٤٧.

[٩٠] المرجع السابق، ج٣، ص٥٤٧.

القرون الوسطى، ثم قرن المؤلف وهو العاشر وتأمل ووازن ترَ في أولياء الشعراني المجانين والمجان والقذرين الذين تتناثر الحشرات من رؤوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى أو في السنة مرة واحدة تجد ذلك البون الشاسع فيهم، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الأنبياء، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الألوهية."[٩١]

ومن ناحية أخرى انتهج الإمام مسلك الشك في بعض الروايات الصوفية، التي ينتابه إزاءها نوع من الريبة، أو عدم القبول لما هو كائن بين جنباتها من دسائس وتزوير، فيقول: "وقد اشتهر الكذب عليهم ودس الزيادات في كتبهم، كما صرح بذلك الشعراني الذي كانوا يدسّون عليه في حياته، ويزيدون في كتبه ما يخالف الكتاب والسنة، ولا تزال كتبه مملوءة بهذه الدسائس، ولو صح عنه كل ما نسب إليه لما كان مؤمناً، بل ملبساً يريد إفساد عقائد المؤمنين."[٩٢]

ولا يعني ما أشرتُ إليه أنه يستنكر كل ما ورد في هذه المؤلفات، وإنما أقصد أنه يميز بين الغث والسمين، وينتخب من هذه المؤلفات كل ما يخدم فكرته ويحقق هدفه. وخير مثال على ذلك أنه يستشهد بكلام لمحيي الدين بن عربي صاحب كتاب الفتوحات المكية، وينقل عنه تفسيره في الجواب على مسألة التوسل بالأنبياء والأولياء.[٩٣]

ت. التفرقة بين الحقيقة والشريعة:

مما لا يُنكر أن كثيراً من الصوفية المعتدلين يؤكدون على ضرورة الاتصال بين الشريعة والحقيقة،[٩٤] فالشريعة من غير حقيقة نفاق، والحقيقة من غير شريعة إلحاد، وامتزاجهما كامتزاج الروح بالجسد. بيد أنّ هناك فئة لم تلتزم بذلك، وقد صرحت بالتفرقة بين الحقيقة والشريعة، وهذه التفرقة تؤدي إلى مزالق خطيرة انتهت بكثير منهم إلى التحلل من الشريعة والانفلات منها كلية، وهذا يذكرنا بموقف الباطنية والإسماعيلية في تفرقتهم بين الظاهر والباطن.[٩٥]

---

[٩١] رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١١، ص٣٤٥.

[٩٢] عمارة، **الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده**، مرجع سابق، ج٣، ص٥٤٦.

[٩٣] المرجع السابق، ج٣، ص٥٣٦.

[٩٤] القشيري، **الرسالة القشيرية**، مرجع سابق، ص١٦٨.

[٩٥] الجليند، محمد السيد. **من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة**، القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٩٩٠م، ص١٤١-١٤٢.

ومن الأشياء التي يراها الإمام محمد عبده هادمة للدين التفرقة التي يزعمها الصوفية بأن الشريعة شيء، والحقيقة شيء آخر، فإذا "اقترف أحدهم ذنباً فأنكر عليه منكر قالوا في المجرم إنه من أهل الحقيقة فلا اعتراض عليه، وفي المنكر إنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه."[٩٦] ولذا يسخر الإمام من هذه الرؤية الصوفية التي جعلت دين الله -تعالى- دينين، وكأن الله يعاملهم معاملتين، وهذا -بالطبع- ليس معقولا.

وعندما فسد التصوف، وضعف الفقه، أذعن الفقهاء للمتصوفة، واعترفوا لهم بالسر والكرامة، "وسلّموا لهم ما يخالف الشرع والعقل على أنه من علم الحقيقة، فصرت ترى العالم الذي قرأ الكتاب والسنة والفقه يأخذ العهد من رجل جاهل أمي، ويرى أنه يوصله إلى الله تعالى."[٩٧]

ث. التسليم المحض والطاعة العمياء:

نظراً للعلاقة المضطربة بين الفقهاء والصوفية، اضطر الصوفية إلى إخفاء أمرهم وكتمان أسرارهم، وقاموا بوضع الرموز والمصطلحات الخاصة بهم، وعدم قبول أحد معهم إلا بشروط واختبار طويل يستغرق ردحاً من الزمن للتأهيل والقبول.

يقول الإمام محمد عبده موضحاً ذلك: "فقالوا: لا بدّ فيمن يكون منّا أن يكون أولاً طالباً فمريداً فسالكاً، وبعد السلوك إما أن يصل وإما أن ينقطع، فكانوا يختبرون أخلاق الطالب وأطواره زمناً طويلاً ليعلموا أنه صحيح الإرادة صادق العزيمة لا يقصد مجرد الاطلاع على حالهم، والوقوف على أسرارهم، وبعد الثقة يأخذونه بالتدريج رويداً رويداً، ثم إنهم جعلوا للشيخ سلطة خاصة على مريديه، حتى قالوا يجب أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدي الغاسل؛ لأنّ الشيخ يعرف أمراضه الروحية وعلاجها، فإذا أبيح له مناقشته ومطالبته بالدليل تتعسر معالجته أو تتعذر، فلا بدّ من التسليم له في كلّ شيء من غير منازعة، حتى لو أمره بمعصية لكان عليه أنْ يعتقد أنها لخيره، وأنّ فعلها نافع له ومتعين عليه، فكان من قواعدهم التسليم المحض والطاعة العمياء، وقالوا: إن الوصول إلى العرفان المطلق لا يكون إلا بهذا."[٩٨]

---

[٩٦] رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٠.

[٩٧] المرجع السابق، ج٢، ص٦٠.

[٩٨] المرجع السابق، ج٢، ص٥٩.

فلا شكّ في أنّ تسليم المريد للشيخ تسليماً مطلقاً في كلِّ الأقوال والأفعال والتقريرات سواء الصحيح منها أم الخاطئ أمر غير مقبول، فقد منح الله تعالى الإنسان العقل للتفكر والتدبر، والنظر في مغبات الأمور، كما أنه لو صحت الطاعة في أبواب الخير، فلا تجب في المعاصي والبدع، حيث إنه من المقرر شرعاً أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

خاتمة:

قدمت هذه الورقة البحثية قراءة لرؤية الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده حول التصوف، وموقفه من أدعياء الصوفية الذين يميلون بتصرفاتهم ميلاً عظيماً لا يمتّ للإسلام بصلة، فيقومون بتعظيم قبور الأولياء والمشايخ، ويتوسلون بهم في كلّ عشية وضحاها، ويبتكرون صنوفاً من البدع والمفاسد التي كانت سبباً في تأخّر المسلمين وضعف شوكتهم، مثل: عادة الدوسة، والتفرقة بين الحقيقة والشريعة، واستعمال مصطلحات غامضة لها آثار سلبية على عقيدة المسلمين.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث بعد المناقشة والتحليل ما يلي:

١. هناك أزمة أخلاقية تربوية تنوعت مصاب عللها في بوتقة المجتمع، مما آل إلى ضعف المجتمع وانهيار أركانه الأساسية، وقد مثل أدعياء الصوفية جزءاً لا يتجزأ من هذا الضعف، وذلك الانهيار؛ إذ إنهم أطلقوا العنان للبدع والمفاسد التي فتكت بكيان الأمة، ولم تجعلها في مصافّ الأمم المتقدمة.

٢. إنّ غيرة الإمام على دينه وأمّته دفعته إلى نقد العادات السيئة، ونقض المنكرات الهاتكة والغاشمة، فحاول جاهداً نصرة العقيدة الصحيحة، وإزالة البدع والخرافات التي تعوق نهضة البلاد وصلاحها.

٣. امتاز الإمام بحسّ نقدي للعادات الصوفية الخاطئة، وللمفاهيم التي طرحت بعض الصوفية في بوتقة الكسل والخمول، والركون إلى الرهبانية حتى ضعف أمرهم، وظنوا أنّ التكاليف قد سقطت من على عاتقهم، فهيهات لما يظنون.

٤. جمع الإمام محمد عبده في رياضته النفسية والفكرية بين أهل الظاهر والباطن، فلم يكن قط من أهل الظاهر الذين يأخذون بالحرف، ويدينون بالتقليد، ولم يكن من أهل الباطن الذين يرفضون الظاهر وينقطعون عن الواقع والحياة العملية وشواغل المعيشة، أو الذين يحسبون الباطنية ضرباً من الدروشة والمسكنة، وهكذا كان رفضه للظاهر رفضاً للقشور وألوان الطلاء، وكان بحثه عن الباطن بحثاً عن حقيقة المعنى الصحيح من وراء اللفظ السقيم.

٥. لا سبيل للنهضة والارتقاء بالمجتمع إلا عن طريق النقد البنّاء، والحوار الفعال في عرض المشكلات والأدواء التي تعرقل نهضة الأمة الإسلامية، ثم اقتراح الحلول والعلاج للتخلص من أوضار الفتن ما ظهر منها وما بطن.

٦. يكمن الحل في طرح هذه الأمور الخارقة أو التسليم بها في حالة واحدة، وهي أن نعرضها على الكتاب والسنة، فإن وافقت الكتاب والسنة نسلّم بها لا محالة، وإن خالفتهما نطرحها جانباً ولا نعتقد بها.

أما أبرز التوصيات فينبغي تقرير الطريقة المثلى لإبطال المنكرات، و هي -في رأينا- طريقة الوعظ والتعليم كما بلورها الإمام محمد رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده، وذلك من خلال ضروب ثلاثة، وهي: الخطابة، وتدريس علم الأخلاق والآداب التربوية، والتصوف الحقيقي. ولا شك في "أنّ هذه الثلاثة لو أعطيت حقها من العناية لنهضت الأمة نهضة الأسود، فاستردت مفقوداً، وحفظت موجوداً، وبعثها الله مقاماً محموداً."[٩٩]

ويوصي الباحث -أيضاً- بضرورة عقد الندوات والمجالس العلمية للتوعية والتنبيه على طبيعة الزهد الحقيقي، وإماطة اللثام عن الأغاليط التي يقع فيها بعض المتصوفة، وبيان القواعد الإسلامية الصحيحة في هذا المضمار.

---

[٩٩] رشيد، محمد رضا. **مجلة المنار**، سنة ١٣٢٧هـ، عدد٧، مج١، ص١٢٢.